مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الثاني والثالث ـ المجلد الثامن والثلاثون

بغداد

شوال ١٤٠٧ هـ ـ حزيران ١٩٨٧ م

نصيحة الملوك

الدكتور احمد مطلوب

(عضو المجمع)

الماوردي أحد أعلام العراق في القرن الخامس للهجرة ، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المنسوب الى بيع ماء الورد وعمله . ولد في البصرة سنة ٣٧٤ هـ وتوفي ببغداد سنة ٤٥٠ هـ وصلى عليه تلميذه الخطيب البغدادي . درس الماوردي على شيوخ عصره كأبي القاسم الصيمري وأبي حامد الاسفراييني وأبي محمد عبدالله البخاري ، وروى الحديث عن الحسن بن علي الجبلي ومحمد بن عدي المنقري ومحمد بن المعلى الازدي وجعفر بن محمد البغدادي . وتتلمذ عليه كثيرون منهم : الخطيب البغدادي وعبدالملك بن ابراهيم المقدسي ومحمد بن أحمد الربعي ، وروى الحديث عنه كثيرون منهم : عبدالواحد بن عبدالكريم وأخوه عبدالرحمن وعلي بن سعيد العبدري وعبدالغني ابن نازل المصري وأحمد بن علي الحلواني .

وللماوردي كتب متنوعة هي :

١ – تفسير القرآن المسمى : النكت والعيون .

٢ – الحاوي الكبير في الفروع في الفقه الشافعي في ثلاثة وعشرين مجلداً في بعض النسخ وثلاثين مجلداً في بعضها . وقد طبع منه جزآن باسم « أدب القاضي » .

٣ – أعلام النبوة .
٤ – الأحكام السلطانية .
٥ – أدب الدنيا والدين .
٦ – تسهيل النظر وتعجيل الظفر .
٧ – أدب الوزير أو قوانين الوزارة وسياسة الملك .
٨ – الأمثال والحكم .
٩ – معرفة الفضائل .
١٠ – الحسبة .
١١ – الاقناع في الفقه الشافعي .
١٢ – كتاب في البيوع .
١٣ – كتاب في النحو .
١٤ – كتاب الكافي .
١٥ – نصيحة الملوك .

وبعض هذه الكتب مطبوع وبعضها مخطوط أو مفقود (١) .

وكتاب « نصيحة الملوك » أحدث ما صدر الماوردي (٢) ، وهو موجّهٌ الى الملوك لانهم « أولى الناس بأن تهدى اليهم النصائح وأحقهم بأن يخولوا بالمواعظ ، إذ كان في صلاحهم صلاح الرعية وفي فسادهم فساد البرية» (٣) .

والكتاب في عشرة أبواب :

الأول : في الحث على قبول النصائح .

الثاني : في الابانة عن جلالة شأن الملك والملوك وما يجب عليهم أن

(١) تنظر هذه الكتب في تقديم ادب القاضي ج١ ص ٤٣– ٦٤ ، تسهيل النظر وتعجيل الظفر ص ١٦ بتحقيق الدكتور محيي هلال السرحان ، وتقديم نصيحة الملوك ص ١٣ .

(٢) حققه الاستاذ محمد جاسم الحديثي واصدرته وزارة الثقافة والاعلام سنة ١٩٨٦ .

(٣) نصيحة الملوك ص ٤٣ .

يأخذوا به أنفسهم من الخلال التي تشاكل منازلهم وتضاهي مراتبهم .

الثالث : في الخلال التي من جهتها يعرض الفساد في الممالك والملك .

الرابع : في فصول من المواعظ التي ينتفع بها ويعالج بها قساوة القلوب ويتداوى بها من أمراض الأهواء وانتقام الشهوات .

الخامس : في سياسة النفس ورياضتها .

السادس : في سياسة الخاصة من الأهل والولد والقرابة والخدم والجند .

السابع : في سياسة العامة وتدبير أهل المملكة .

الثامن : في تدبير الأموال وجمعها وتفريقها .

التاسع : في تدبير الأعداء .

العاشر : في تقديم النيات وطلب التأويلات لكثير مما يجري بيانه على أيدي الملوك مما يكرهه كثير من العلماء والعقلاء .

وضمن الماوردي هذه الأبواب العشرة آراءه واحتج لها بكلام الله – سبحانه – وحديث النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وسير الملوك الأولين والأئمة الماضين والخلفاء الراشدين والحكماء المتقدمين فجاءت مؤيدة بالأسانيد الصحيحة والأخبار الموثوقة . ووجه الماوردي كتابه الحافل بالنصيحة الى الملوك لانهم «أحق من يهدى اليهم النصح » ولانهم « أحق الناس بقبول النصيحة وسماع الموعظة » (٤) . وكل ما في الكتاب طريف يستحق الوقوف عنده طويلا لانه يعبر عن صدق المؤلف واخلاصه في تقديم النصيحة لأولي الأمر ليسعد المجتمع ويحيا حياة هانئة رغيدة ترفرف عليه ألوية المحبة والخير والسلام . والفصل التاسع يصور هذا المنزع خير تصوير إذ رسم الماوردي فيه تدابير أصحاب الجنايات ، ومن ذلك اباحة دم المشركين الذين يقاتلون على أصل التوحيد والنبوة والشريعة ، واباحة دم الباغين الذين يخرجون على المسلمين والأئمة العادلين ،

(٤) نصيحة الملوك ص ٥١ .

وعقاب قطاع الطريق ومخيفي السبيل . ويتصل هذا الفصل بسلامة الدولة واستقرار الأمن في الداخل ، لان من أهم ما يقوم به السلطان المحافظة على سلامة المواطنين وتجنيبهم الفتن التي تثيرها النحل والطوائف الخارجة على العقيدة والساعية الى بث الفوضى ونشر الفساد . ويأتي بعده الدفاع عن الدولة وكيانها وترابها ، ويأخذ عدة مراحل أولها عرض السلم على العدو فلعله يجنح لها ، فان لم تنفع هذه الدعوة كان الوعد والتحذير فان لم يجد الوعد كانت الحرب وهي مالابدّ منه لدرء الأخطار وحماية الوطن من العدوان .

ومن أهم ما ينبغي تثبيته استعمال اليقظة في الحرب وترك التناوم والغفلة والاشتغال بشيء من الملذات والملاهي والملاعب والمطارب ما لم يفرغ من الحرب ، وان يجعل السلطان على العدو عيونا راقبة وآذانا واعية لتجتمع خصال جليلة هي أزمّة تدبير الحروب :

١ ــ أن يطلع على ما يحدثه العدو من مكيدة أو يضمره من خديعة أو يجمعه من مباينة فيأخذ من ذلك حذره ويعدّ له عدته ولا ينال منه غرة ولايصاب منه غفلة فيهلك .

٢ ــ أن ينتهز منه الفرصة .

٣ ــ أن يقف على عدد العدو وعدته وآلته .

٤ ــ أن يقف على رسوم العدو في وقائعهم ، فمن الاعداء من رسمه في ذلك المغالبة بحملة أو حملتين او ثلاث ثم يوفي إذ لم ينقد له ما يريد .

ويأتي بعد ذلك تعهد أمر الجيش في الحـــل والترحال ، وان ينزل العسكر في أحسن المواضع وأوثقها وأخفها لمؤنهم وذلك :

١ ــ ان لا ينزل منزلا وينيخ بعسكر حتى يعرف طرفيه .

٢ ــ ان تكون مواضع العسكر متلاصقة متدانية .

٣ ــ ان تكون لهم أسواق يجدون فيها مالابدّ لهم منه .

٤ – أن يكون لكل باب من أبوابهم قائد جلد .

٥ – أن يحيط بهم خندق .

٦ – أن لا تكون الاسلحة بعيدة عن أيديهم حتى كأنهم قد أظلهم العدو واضطرهم للدفاع .

٧ – أن تنتشر الطلائع في الطرق وأن يطوف غير واحد من الأشداء على العسكر للتفتيش على الاسلحة وأخذ الأهبة والاستعداد للقتال .

٨ – ان يكون المعول عليهم في الحرب قريبين من السلطان ليجيبوه ان دعاهم في أقرب وقت وأسرعه .

٩ – أن يحافظ على القيم الخلقية لئلا يحدث الفساد .

١٠ – أن لا ينزل السلطان حتى ينزل أهل عسكره ويطوف حول العسكر ويأمر بسدّ ما يرى من الخلل واصلاح ما يجب اصلاحه . .

ويستمر الماوردي في عرض ما يحتاج اليه السلطان في زمن الحرب ، ومن ذلك :

١ – أن يقايس بينه وبين عدوه من حيث الأمة والمكان والعدد والعدة .

٢ – أن يكون أحرص الناس على كتمان السر وتقديم الحيلة على القوة .

٣ – أن يحسن اختيار رسله ومبعوثيه .

٤ – أن لا يلقى حربا بنفسه .

٥ – ان يشكر الله – عزوجل – إذ فتح عليه ونصره .

٦ – أن يتفقد جيوشه بتفقد أحوالهم ويأمر بمداواة جرحاهم وبتمريض مرضاهم ودفن قتلاهم وابدال ما ينفق من عدتهم وسلاحهم ويكفي ويعول ورثة قتلاهم وموتاهم .

وهذه من الأصول الجليلة في مثل هذا الموقف ، وهي لابدّ مفضية الى عزة الدولة واعلاء شأنها ، وهي « تمام ما يستعان به على كسر الأعداء واذلالهم واعزاز الأولياء وانعاشهم ، وهي كلها من أوامر الله تعالى في الدين وأفعال

الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين » (٥) .

ويطوف الماوردي في كتابه مسديا النصيحة حاثًا على الالتزام بأوامر الله ونبيه الكريم والخلفاء الراشدين وأولي الأمر الصالحين . ولا يقتصر على القضايا السياسية والعسكرية وانما يعرض لموضوعات مختلفة تنفع السلطان في إدامة ملكه وحفظه من عاديات الزمان . ومن ذلك السياسة الخاصة بثقافة الاولاد كاختيار الاسم الحسن للمولود وجهة اختيار الاسم وتعليم الولد القرآن واللغة وحفظ الولد أخبار المغازي والسير واختيار المعلم والمؤدب وتأكيد صلة الاقارب وذوي الرحم .

والماوردي يولي اللغة العربية اهتماماً كبيراً لانها لغة القرآن الكريم وكانت أقوى موحد للعرب في كل العصور . وقد وضع أسس تعلمها لان علم اللغة « لا تستغني عنه فرقة من هذه الفرق وأهل نحلة من هذه النحل إذا اراد أن يكون كاملا في صناعته وفاضلا في ديانته ومذهبه ومقالته إذ بها يعرف نظم كلام الله وآثار رسوله ويقف على معاني خطابه ومعاني كتابه » (٦) . والقاعدة الأساسية في تعلم اللغة أن يُبتدأ بها عند الحداثة وعنفوان الشباب وفراغ القلب « وأن يقصد الى الأخف فالأخف من كتبها والأسهل فالأسهل من مؤلفاتها ومصنفاتها » وان لا يشغل الناشىء « بالغريب الوحشي والنادر الأجنبي ، ولا بدقائق النحو ودواوين العروض . فان ذلك مما يشغله عن المعاني ، وأن يتعلم الألفاظ قصداً الى معرفتها فاذا أفنى الانسان عمره في تعلم الالفاظ فانته المعاني إلا أن يكون ذلك لمن يجعله صناعة مثل الأدباء والمؤدبين والمعلمين من النحويين . ويحتاج في الاستعانة على تعلم اللغة الى رواية أشعار العرب وأيامها وأخبارها ، والصواب في تدبير ذلك أن تروى له وتعلّم ، ويحفظ الأشعار الحكيمة التي ضمنت الحكمة والتوحيد والدين والبعث على العلم والزهد

(٥) نصيحة الملوك ص ٥٢٠ .
(٦) نصيحة الملوك ص ٢١٦ .

والشجاعة ومكارم الاخلاق دون التي يذكر فيها الزنى والتجحيش والعشق والفحش والأهاجي التي فيها قذف المحصنات وذكر العورات لينشأوا على معرفة الفضائل ومحبة نيل الممادح نشوءً ، ويعتادوها عادة فيجتمع في ذلك فائدة الفصاحة والبيان ومعرفة المبتذل من الكلام وكثيراً من الغريب والوقوف على المعاني الفاضلة » (٧) . فالماوردي يؤمن بالتدرج في تلقين العلم والانتقال به من مرحلة الى مرحلة بحسب سن الولد ، ويحث على تعلم اللغة الفصيحة البعيدة عن الالفاظ الغريبة ، واتقان الضروري من النحو وما يتقوم به اللسان ، ويدعو الى تعلم الاشعار الحكمية التي تؤكد الخلق والرجولة ، والابتعاد عن الشعر الماجن الذي يحث على الفسوق ويحبب الخروج على القيم الرفيعة لينشأ الولد وقد عرف الفصاحة والبيان وتجنب المبتذل من الكلام . ويؤكد الماوردي الفرق بين المتخصص والمتعلم ، فالأول يحتاج الى ثقافة لغوية ونحوية وأدبية واسعة لانها صنعته ، والثاني يحتاج الى ما يقوّم لسانه — وهذه النظرة العميقة تعدّ من أصول التربية والتعليم ، وقد أكدها المفكرون العرب والمسلمون قديماً كالامام الغزالي في « إحياء علوم الدين » ورجال التربية والتعليم في هذا العصر .

إن سعة أفق الماوردي واتصاله بالحياة الفكرية والسياسية في عصره واسهامه في الحياة العامة فتحت السبيل أمامه فوضع كتاب « نصيحة الملوك » ليكون دليل عمل لا للسياسيين والقادة فحسب ، وانما للمثقفين عامة ، والكتاب لا يزال محتفظاً بكثير من القيم والاصول على الرغم من تقادم عهده ، وقد أحسن صنعاً الاستاذ محمد جاسم الحديثي حينما حققه وأخرجه للناس سفراً يروي عن الماضي ويتحدث في الحاضر والمستقبل . وللكتاب مخطوطة فريدة محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس برقم (٢٤٤٧) وهي كاملة في (١٩٠ ورقة) مسطرتها ٢٢ — ١٥ وقد كتبت بخط النسخ عام ١٠٠٧ هـ ، أي

(٧) نصيحة الملوك ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

أنها متأخرة عن زمن المؤلف . وبذل الاستاذ المحقق جهداً عظيما في اخراج هذه المخطوطة وقدّم للكتاب بمقدمة تحدث فيها عن حياة الماوردي وآثاره ومكانته العلمية وأفاض في تحليله فتعرض لمن ذكره، وهدف المؤلف ومصادره وموضوعات الكتاب ومخطوطته النادرة . وتكلم على منهجه في التحقيق وما بذل من جهد يتجلى في :

١ — ان المحقق وضع مقدمة للكتاب ليست بالموجزة ولا بالمسهبة ليلقي ضوءً على الماوردي وكتابه « نصيحة الملوك » .

٢ — انه ضبط النص ضبطا دقيقا .

٣ — انه رجع الى المصادر الكثيرة التي أعانته على التحقيق وتوثيق النصوص ، وقد بلغ عددها ٣٠٧ كتب غير الذي راجعه ولم يثبته في الهوامش .

٤ — انه عني عناية فائقة بتخريج الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والأقوال المأثورة والاشعار المروية .

٥ — انه وضع مسارد تفصيلية للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية والاعلام ومصادر التحقيق ومحتويات الكتاب .

٦ — انه وضع عناوين جانبية تدل على المعنى ، وقد وفق في ذلك وجاءت العناوين دقيقة ذات نفع كبير .

وهناك بعض الملاحظات لاتقلل من الجهد العظيم الذي بذله المحقق في اخراج الكتاب بصورته الزاهية ، ومن أبرزها :

١ — وقوع بعض الأخطاء المطبعية واللغوية في المقدمة ونص الكتاب (٨) ، وهو ما لايسلم منه مطبوع .

٢ — ان توثيق الكتاب يحتاج الى وقفة أطول إذ لم يذكره القدماء ضمن آثار الماوردي ، وذكره المتأخرون كحاجي خليفة في « كشف الظنون »

(٨) ينظر نصيحة الملوك ص ٢١ — ٢٣ ، ٢٧ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٩ .

وبروكلمان في « تأريخ الأدب العربي » وجرجي زيدان في « تأريخ آداب اللغة العربية » ومصطفى السقّا في مقدمة « أدب الدنيا والدين » وخير الدين الزركلي في « الاعلام » والدكتور عمر فروخ في « تأريخ الأدب العربي » والدكتور محيي هلال السرحان في مقدمة « أدب القاضي » ومقدمة « تسهيل النظر وتعجيل الظفر » للماوردي . وكان من المفيد أن يشير المحقق الى النصوص المتشابهة التي جاءت في « نصيحة الملوك » وكتب الماوردي الأخرى ، ويعتمد عليها في توثيق الكتاب ونسبته ، وإن لم يكن هناك أدنى ريب في أن الكتاب للماوردي روحا وفكراً ومادة واشارات المحقق في هوامش « نصيحة الملوك » (٩) تعين على التوثيق بعد أن خلا الكتاب من أية اشارة الى كتب الماوردي الأخرى .

٣ — إن المعجم القديم هو المرجع في معرفة الالفاظ الغريبة ، ولا يستحسن الرجوع الى معجم معاصر مثل « المعجم العربي الحديث — لاروس » و « المعجم الوسيط » اللذين قد يراجعان عند تعذر العثور على اللفظة في المعجم القديم ، أو حينما تكون اللفظة متأخرة أو مجمعية . وقد أحسن صنعاً الاستاذ المحقق حينما اعتمد على « لسان العرب » لابن منظور و « تاج العروس » للزبيدي وغيرهما من المعاجم المبسوطة في معظم عمله ، وهذا هو النهج الصحيح .

٤ — ان المحقق لم يقع على جميع النصوص الشعرية والنثرية التي ذكرها الماوردي (١٠) ، ولعله يعثر عليها ويدخلها في الطبعة الثانية . ولا يقلل هذا من الجهد العظيم الذي بذله في البحث عنها ، وهي قليلة جداً إذا ما قورنت بالنصوص التي خرجها ففي « نصيحة الملوك » (٤٣٥) آية قرآنية و (١٣٥)

(٩) ينظر نصيحة الملوك هوامش الصفحات : ٨٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢٣٢ ، ٢٤٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٥٢٦ ، ٥٥١ ، ٥٥٨ .

(١٠) ينظر مثلا ص ٧٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٦ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ٢٣١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ، ٣٢٨ .

حديثاً شريفاً و (٣٥٠) مقولة حكمية وأدبية و (١١٧) بيتاً شعريا و (١٣٠) علما . وهذا العدد الكبير ينوء به أي محقق مهما راجع من كتب وبذل من جهد .

٥ – ان المحقق لم يرجع الى المعجم القديم ليؤكد كلام الماوردي ان « السلطان في اللغة هو الحجة » وان « مَلَكَ يَمْلِك في أصل اللغة من المِلْك لا المُلْك » (١١) . وفي الرجوع الى المعجم توثيق لكلام الماوردي الذي لم يكن فقيها أو سياسياً فحسب وانما كان أديبا لغويا يحسن اختيار الالفاظ ، ويُعنى باللغة العربية ويرسم طرائق تعليمها .

٦ – ان المحقق رجع الى معجم البلدان لياقوت الحموي وغيره من معاجم البلدان ، وهذا حسن لان « نصيحة الملوك » من كتب القرن الخامس للهجرة وصلته بالموروث وثيقة . وحبذا لو زاد المحقق عليها معلومات حديثة لتكون قريبة من القراء الذين لا يعرف كثير منهم مصطلحات القدماء .

٧ – إن المحقق لم يذكر اسماء الشعراء والاوزان الشعرية في مسرد الاشعار ، وفي ذكرها زيادة في الفائدة والايضاح .

٨ – إن المحقق لم يشر في كتب الماوردي الى ان « قوانين الوزارة وسياسة الملك » هو نفسه « أدب الوزير » اعتماداً على فطنة القارئ ، والاشارة الى ذلك مهمة في مثل هذا الموقف .

هذه بعض الملاحظات عنّت لي وأنا أطوف في مروج خضر نشرها الاستاذ محمد جاسم الحديثي فكانت ظلا ظليلا . ويبقى كتاب « نصيحة الملوك » للماوردي من أجل الكتب التراثية التي صدرت عام ١٩٨٦ ، ويظل جهد المحقق محموداً يقدره كل من عانى صنعة التحقيق وهو يتابع لفظة في عدة مصادر ويقضي فيها زمنا قد يقصر أو يطول . وقديما قيل :

لايعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

(١١) نصيحة الملوك ص ٧٨ ، ٨٠ .